كاتب الدولتين النورية والصلاحية (1)

سير النبهاء من أهل كل علم أو فن أو صناعة — وتدخل فيها أفكارهم وأعمالهم ومفاهيمهم في الحياة — أمثلة حية خالدة ، تفنى سودهم وأشباحهم بالموت وهي باقية بقاء الأكوان .

تجيدُ مواكب الإنسانية فيها سرّ انتظام معايشها فتجيدُ في طلبه ، فاذا أدركته وتمثلته في أعمالها عاشت به .

وفي سيرة كل نابه أو عظيم ، سرٌ من أسرار الخلود تحيا به ، كسرّ الحياة في النواة .

فكما أن النواة اذا غُرست وتعهّدها غارسها بالسقي والتربيب تعود شجرةً وتُعطي ثمرةً ، فكذلك السرّ الكامن في سير النبهاء اذا بُحث وكشف عنه ودُلّ عليه ، استطال ممشاه في الأذهان ، وأشرقت صورته في الألباب ، وعاد الى عالم الأحياء قوّةً محرّكة ، وروحاً موجّهاً ، وعملاً دائباً في صور مختلفة وأشكال شتى .

وهي ، مهما تطاول عليها الزمن ، صالحة للبحث والإثارة والنظر في كل زمن ؛ لأن عناصرها جواهرُ وليست بأعراض ، ولأن أصولها إنسانيّة خالصة ، وأعيانها قائمة بمعانيها الجليلة . ولولا ذلك ، لماتت بموت أصحابها كما يموت كل إنسان اعتياديّ لاخطر له في الحياة ، كهؤلاء الذين عناهم شاعر العصر أحمد شوقي حين قال :

وقد يموت كثيرٌ لاتحسّهمُ كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا

والعظمة مراتب ودرجات مختلفة ، لاشكّ في هذا ، ولها مظاهر متعددة بتعدّد المجالي التي تبرز فيها في شكل من الأشكال وعلى صورة من الصور . وهي ليست قرينة أرباب القوّة والسلطان دون غيرهم كما يتخيل معظم الناس ، بل لعلّها في منأى بعيد عن معظم أرباب القوّة والسلطان في جميع العصور ، وتبدو للمتأمل المدرِكة قويّةً واضحة في أشباح المغمورين (عند

(1) محاضرة ألقاها الأستاذ محمد بهجة الأثري نائب الرئيس الأول بدار المجمع في ١٩٥٦/١١/٢١ م .

العامة وأشباه الخاصة) : من أرباب البلاغات والفنون والعلوم ، ومَنْ اليهم من الرجال الموهوبين الذين هم — في حقيقة الأمر — عصب المجتمع ، وقوام كيانه وأستمراره .

إن مقياس العظمة الحق عند المفكرين ، هو الإنتاج النافع ذو الأثر البليغ في ناحيةٍ ما من نواحي الفكر والعمل والحياة ؛ لأنه هو الباقي الخالد بعد الموت وأختفاء الأشباح والصور ، وما عداه فلا قيمة له ؛ لأنه بهرج خدّاع زائل ، مثله كمثل السراب في الأرض اليباب ، أو الفُقاعات التي تظهر فوق متون الشراب فلا تلبث أن تتلاشى .

وفي سيرة كل نابه سرّ من أسرار القوة والحياة ، نجده بادياً في تراثه العقلي أو العملي ، وفيما أفاد به الإنسانية من خير باقٍ ممدود الظل وريف .

إنّ التأريخ هو صنع النبهاء الموهوبين من الناس ، وتأريخنا حافل من سير النبهاء الموهوبين بروائع ما كان ليكون تأريخاً حيّاً جميلاً لولا وجودها في مضطربه الواسع المديد ، فهي موجدته حقّاً ، وهي المؤثرة في سيره وأتجاهاته .

في تأريخنا نوابغ لاعداد لهم في جميع شؤون الفكر والحضارة ، غير أنّنا نجهل حقائقهم ؛ لأننا مشغولون عنهم ، ولأنّ ما كتب عنهم في القديم لايجلو صورهم الحقيقية ، فمعظمه نُبَذٌ قصار متفرقة متفككة ، وكتب التراجم العامةُ التي تترجم لهم هي كالفهارس التي تصنع للكتب ، تدلّ على الفصول ولا تشرح الحقائق . ولست أذكر أنني وقفت فيها على أسم نابه ، إلّا وجدته في أستقراء آثاره أكبرَ مما تذكر من أمره أضعافاً مضاعفة .

فاذا زعمت أن تأريخنا عامّةً ، وتراجمَ الرجال منه خاصّةً ، لم يكتب بعد ، لم أبعد . وإلّا ، فأين الكتب الممتازة التي تجلو عبقريات آلافٍ وآلاف من رجال الفكر والأدب والعلم والفن من العرب والمسلمين في مدى أربعة عشر قرناً ؟ وأين السير الخوالد التي توحي إلى قرّائها المعاني النبيلة ، وتحدوهم على الفضائل ، وتطبعهم على عشق العلم والعمل والإنتاج ؟

ليست كتب التأريخ والسير كتبَ تسلية وإيناس ، ولكنها كتب عظات وعبر تُساق فيها الأخبار لأنتزاع القدوة . والأمم العتيقة المتيقظة التي تفتقد القدوة في الأحياء

فلا تجدها ، لامتناص لها من التماسها في سير صاغة التأريخ .

وليس يَعْني أمثالَنا من مراجعة التاريخ أو كتابته أمر أجلّ من هذه الوجهة النفسية ، وكلّ ماعداها من الجمع والرواية والنقل ، فنوافل وزوائد وإضاعة للعمر : عمر الكاتب وعمر القارئ معاً ، وويحٌ للتأليف من ثرثرة الجمّاعين ! وقرقرة الفارغين !

* * *

وسيرةُ عماد الدين القُرَشيّ الأصبهانيّ الكاتب — كاتب الدولتين النوريّة والصلاحيّة في القرن السادس الهجريّ — من السير الموحيـة ، فهي خليقة بأن تدرس وأن يثار الكلام عليها من الناحية التي يجب أن يصاغ عليها تأريخ الرجال دون غيرها .

وهي في كتب التراجم العامّة ، ولست أغمط فضلَ هذه الكتب ، كأمثالها من سير مَنْ هم أكبر شأناً وأعظم قدراً من عماد الدين ، باردةٌ لاحرارةَ فيها ، وجامدةٌ ليس بها روح يتحرك .

قيل : إن العماد كانت به فترة اذا نُظِر اليه ، وجمود في النظر والكلام ، فاذا أخذ القلم جاء بالعجائب نثراً وشعراً ، إذْ كان كالزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار كما وصفه صفيّه القاضي الفاضل وزير الدولة الصلاحية وأديب عصره العظيم .

وأقول : وددت لو أن كتب التراجم العامة هذه جانبت في ترجمتها له ولغيره ، ما بها من مثل فترته وجموده الظاهر ، وقبست من باطنه قبساً يشيع الحرارة في النفوس ، ويذيع النور في العيون .

* * *

تعجبني في « شخصيّة » العماد الكاتب مظاهر أربعـة : نشاطه الذهني ودؤوبه العلمي العجيب طلباً للكمال ، ثمّ بُعد همّته وإكثاره من الأسفار بين البلاد في شبابه وكهولته وشيخوخته ابتغاءً لحظوظه من الدين والدنيا ، ثمّ مشاركته القويّة للدولة في الحرب الهجومية الدفاعية العظمى بين الغرب والشرق ، ثمّ إنتاجه وحرصه الشديد على تقييد خواطره وأفكاره

شعراً ونثراً وتخليدِهِ التأريخ السياسيّ والحربيّ والثقافيّ لعصره في الأسفار الروائع الضخام ، وهي كلها عناصر موحية وموجّهة ، لو أراد كاتب روائي من كتّاب العصر أن يتخيّل صورة حية قويّة جامعة للفضائل ، ليتخذ منها قرّاؤه قدوة صالحة لحياتهم ، لما اتسع خياله لصورة أجمل من هذه الصورة الجامعة لأنبل الخصال والفضائل ، ولما جال قلمه في مطالبَ أمثلَ من هذه المطالب العالية التي تتمثل قويّة جميلة في سيرة العماد .

ولقد أعانت العماد على تكوين « شخصيته » هذه ثلاثة عوامل :

أ) نفسه ،

ب) أسرته ،

ج) دولته .

وعندي أن العامل الأوّل هو مكوّن « الشخصية » الفعليّ لكل نابه أو عظيم ، وقديماً قال بعضُ العرب :

نفسُ عِصامٍ سوّدَتْ عِصاما وعلّمتهُ الكرَّ والإقداما

أمّا العاملان الآخران ، فهما عاملان مساعدان على شيء من زيادة الظهور أحياناً ، ويهونُ الخطب اذا عُدِما مع وجود الأول .

أ) وكانت نفس العماد نفساً عِصاميّة ، لا تتعلق بعظاميّة الآباء ، وكلُّ نفوسِ العصاميّين هي كذلك ؛ لأنها تملك قوة الاعتداد بمواهبها ، فتستشعر الغنى عن الاستعانة على الظهور بقوة غيرها وإن كانوا آباءها ، ولا يَعنيها ما يفوتها من مستفاد البيت أو الدولة كما يَعني ذلك الفقراء من المواهب الذين يلتمسون بناء « الشخصية » بالاتّكاء على رميم الأموات ، أو بالاعتماد على بهارج السلطان .

يحسّ العصاميّون لوجودهم « شخصيّة » مستقلّة ، ويَشعُرون شعوراً حادّاً أنهم ـ بما يملكون من قوّة النفس والسليقة والعبقرية ـ غنيّونَ عن طلب البهرج الكاذب ، من جاه الأموات أو جاه المناصب ، فيرتفعون بأقدارهم عن الصَّغار ، ويعتزّون في بناء « الشخصية »

عما يحسنون إبداعه وتخليده من جميل الأفكار وجليل الأعمال .

وأولئك يشعرهم « مركّبُ النقص » فقرَ أنفسهم ، فيلصقهم بالرّغام ، واذا هم يطلبون غناها من جاه الأموات أو جاه السلطان . وقد يظفرون بالكثير من جاه السلطان حين تزيف الأوضاع وتزيغ الطباع ، ولكنهم لا يَرَوْنَ أكبرَ ممـا هم في حقيقة أنفسهم ، ولا يجديهم ما حُمّلوه من الشارات والرتب في إثبات « الشخصية » بين الموجودات .

ويعجبني من العماد ، وهو من أبناء الأُسر الرفيعة ، أنه تناسى ما حقه من علوّ النسب والحسب وجاه البيت والثروة ، وسمت همته الى خَلْق المجد لنفسه بنفسه على قدر ما تهيّأ له منه في مزدحم الحياة .

هذه النفس العصاميّة القويّة ، هي أعظم ما أحببته وأكبرته وعظمته منه ، وهي مفتاح « شخصيته » ، بل هي وحدها موجدة « شخصيته » ومكوّنتها على ما سيرى من ملامح سيرته .

ب) وأسرة العماد ، من الأُسر العريقة بأصبهان في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، تميّزت بالرئاسة والسؤدد والفضل والكتابة . وظاهرُ الحال أنها أسرة فارسية ، وقد كنت إخال ذلك حقيقة مسلّماً بها ، إذ كان جميع من ترجموا لرجالها من المؤرّخين قد أضافوها الى أصبهان ولم يتعرضوا لغيرها من صلاتها ، فكأنهم وجدوا في هذه النسبة الى هذه المدينة الفارسيّة العريقة ما يدل على الأصل الذي تنتمي اليه ، فاكتفوا بالتلميح عن التصريح .

بَيْدَ أنني وجدت مؤرّخاً واحداً ممّن وقفت على آثارهم من المؤرخين ، وهو ابن الفُوَطيّ ، قد شذّ عن هؤلاء جميعاً ، فنصّ في ترجمته للعماد — في كتابه مجمع الآداب — على تعيين أصله ، فنسبه الى قريش ثم الى أصبهان . وابن الفوطيّ من أوثق المؤرخين وأكثرهم علماً بأحوال فارس ، لطول مُقامه فيها ، فاذا صح ما ذكره ، ولا إخاله إلا صحيحاً ، كانت هذه الأُسرة في الصميم من النسب العربي .

ولست أجد في هذا غرابةً ، فان هجرة القبائل العربية بعد الفتوحات الإسلامية في الشرق

قد امتدت الى الصين ، وتوطن كثير من الأسر العربية العريقة بلاد فارس وغيرها ، ما قرب منها وما بعد ، وأصهروا الى الأقوام التي دانت بالإسلام ، وكانت لأجيالهم من بعدهم خؤولة في الأمم المفتوحة .

ومن النوابغ الكبار في هذه الأجيال العربية الفارسية : أبو الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني ، والأبيوردي الشاعر المشهور صاحب النجديات والعراقيات ، وهما أمويان في الصميم من أمية بن عبد شمس ؛ وبديع الزمان الهمذاني الكاتب البليغ وخؤولته في مضر ، والأرجاني الشاعر وسلفه القديم من الأنصار ، وغيرهم كثير جداً .

فليس ما ذكره ابن القوطي من نسب أسرة العماد في قريش ببعيد عن الصدق ، وإن انفرد بروايته بين المؤرخين .

وقد ظهرت هذه الأسرة في العهد السلجوقي . وكانت وثيقة الصلة بالدولة ، فتقلب رجالها في الإدارة والسياسة ، وكان من خصائص رجالها التثقف بالثقافتين العربية والفارسية . ويظهر من استقراء أحوالهم أن العناية بالآداب العربية وبرواية الشعر العربي وقرضه أيضاً ، كانت عريقة عند قدماء رجالها .

فقد وجدت جد العماد أبا الرجاء حامد[1] بن محمد يحفظ على ما ذكر سبط ابن الجوزي شعر البحتري ودواوين العرب . وحفظ شعر البحتري ودواوين العرب ممتنع عقلاً ، فكأن السبط بهذه المبالغة أراد أن يذكر مبالغة أبي الرجاء في التوفر على الشعر العربي مبالغة استوفى بها حظه من البلاغة العربية والذوق الشعري ، حتى تسنى له أن يقرض الشعر الجيد . ومما روي له قوله ، وقد ظرف في البيت الثاني منه :

تولى الجهلُ وانقطع العتابُ ... ولاح الشيبُ وافتضح الشبابُ

لقد أبغضت نفسي في مشيبي ... فكيف تحبني الخود الكعابُ ؟

كذلك وجدت عمه أبا نصر المستوفي المعروف بالعزيز شاعراً فصيحاً ، وكان الى ذلك

(١) في مرآة الزمان هو عم العماد ، والصحيح جده .

جواداً ممدّحاً ، ووزيراً خطيراً ، أختص بالسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، ودبّر قوانين الوزارة ، وأرتفع شأنه في الدولة ، ثم عملت الوشايات عملها في إسقاطه ، فقبض عليه السلطان محمود بهمذان ، وصادره على أمواله ، وأعتقله ، ثم أعاده الى سابق حاله ، ثم قبض عليه بالعراق فحبسه في قلعة تكريت . وكان الأمير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وأخوه الأمير أسد الدين شيركوه ، متولّيَي أمر القلعة ، فسدافعا عنه ، فما أجدى دفاعهما ، فخُنق في الحبس ، وقيل سُمّ ، وقيل قتل .

وقد كان العهد السلجوقي الذي نبغت هذه الأسرة في ظلّه من عهود الأضطراب ، وفي عهود الاضطراب قلّما يعلو شأن أسرة أو فرد ويسلم من المحنة والبلاء ، ولذلك رأيت رجالاً آخرين من رجال هذا البيت يصادرون على أموالهم ، ويعتقلون أيضاً ، ومن هؤلاء : صفي الدين والد العماد ، وضياء الدين عمه .

ويذكر العماد أن الخليفة الراشد بالله قد أستدعى أباه ليوليه الوزارة ، فتعلل عليه ، قال « وكانت الخيرة فيه » ، وذلك لهوان أمر الوزارة ولما كان يتعرض له الوزراء من سوء البلاء . ولكنه مع رفضه للوزارة حاق به الشر من حيث فرّ منه ، فصودر وأعتقل . فلما أطلق ، خاف من مُقامه بأصبهان ، فخرج بأهله الى العراق طلباً للأمن والسلامة ببغداد .

لا جرم أن العماد قد ورث من آبائه صفاتهم النفسية وكثيراً من خصالهم ، وأن عصاميّته قد جذبته الى أنتهاج مسلك أسرته في الرئاسة والسؤدد والكتابة ، فأفادته ما أستمتع به من بعدُ من حظوظ الدنيا في أكناف الدول التي عاصرها في العراق والشام ومصر .

ج) وهو قد خدم ثلاث دول من الدول الإسلامية في القرن السادس : دولة الخلافة العبّاسيّة ببغداد ، ثم الدولة النوريّة بدمشق ، ثم الدولة الصلاحيّة التي أستخلفت الفاطميين على مصر والدولة النورية على بلاد الشام وأمتدّ ملكها من ديار بكر الى اليمن . فكانت صفته الرسميّة فيها عاملاً مساعداً في بروز « شخصيته » من غير شكّ ، ولكنني أرى أنه أفاد هذه الدول أكثر مما أفادته ، إنها أعطته المناصب والثراء وهي متع زائلة لا دوام لها ولا بقاء ،

وأعطاها هو بيانه الذي سجل مآثرها في الدواوين ، وخلّد رجالها بشعره ونثره ، ولهذا استغلّته وعطفت عليه وأكرمته بالمناصب والثراء ، لتكسب بقلم مثله وجودَها التأريخي . وهكذا تتصرّف الدول الحكيمة مع الرجال الموهوبين ، بل هكذا يتصرف الأفراد الحكماء في كلّ زمان ، كالذي كان من صنيع هَرِم بن سنان المُرّيّ مع زُهَيْر بن أبي سُلْمَى مثلاً . وقد رُوي أن عمر بن الخطاب رأى أحد أولاد زهير فسأله : ما فعلت الحُلَلُ التي كساها هرمٌ أباك ؟ قال : قد أبلاها الدهر ، قال عمر : ولكنّ الحلل التي كساها أبوك هَرِماً لم يُبلها الدهر ـ يعني قصائده التي مدحه بها .

وأفاض سيف الدولة على المتنبي ما أفاض من أموال وهدايا حتى أذلّ أفراسه بنعاله عسجداً ، ففني كل ما أعطاه إيّاه ، وبقيت قصائد المتنبي في مدحه وأوصاف حروبه مع الروم البيزنطيين دفاعاً عن الوطن العربي خالدةً سائرة على كل لسان منذ ألف عام ، وستبقى آلافاً من الأعوام ما بقي العرب والعربيّة على وجه الزمان .

وقد أبلى الدهر كل ما كسبه العماد من العباسيّين ومن الدولتين النورية والصلاحية ، ودرست هذه الدول وجاءت بعدها دول وأمم ، ولم يُبلِ ما كساها به من حلل الخلود بكتبه وشعره ونثره .

* * *

تقوم « شخصيّة » العماد الكاتب على أربعة عناصر تميّزت بها حياته ، وبحسب المرء أن يتوفر عنده مثلُها ليطمئنّ الى خلود اسمه في سجلّ الخالدين .

١) أوّل هذه العناصر ، نشاطُه الذهنيّ ودؤوبه على الطلب والتحصيل من لدن نشأته الى وفاته ، وهو قد عُمِّر ثمانية وسبعين عاماً وبلغ ما بلغ من المنزلة في العلم ورتب الدولة ولم يَرَ نفسه إلّا طالباً من الطلاب .

وقد ولد في منتصف سنة ٥١٩ هـ بمدينة أصبهان ، وكان فيها منشؤه ومرباه الأول في صباه . وكانت أصبهان من أهمّ مراكز العلم في المملكة الاسلاميّة العظمى ، ثم أجناحتها في العصور

الوسطى موجةُ الفساد والخراب ، من دعاة الدعوة الباطنيّة القرمطيّة ، فرأى العماد أشياء من مقدّماته وصوراً منكرة للفساد السياسي الذي تعرض رجال بيته لشرّه ، كما أدرك فيها أعقاب النشاط العلمي الحادّ الذي تفرّدت به هذه المدينة الفارسية ، أو كادت . وقد وجد فيما سمعه من أخبار أعيان العلماء والأدباء وأئمة العربية ، الذين أخرجتهم مدينته ، وفيما رآه من سيرة أهل بيته في المراوة والرئاسة والفضل والكتابة ، ما حبّب اليه المثال الذي احتذوه في الحياة .

وكان من سنّة أهل بيته التبكيرُ في تعليم أطفالهم وأخذهم بالسيرة العالية في العلم والأدب ، فدفعوه الى التعلّم صبياً ، وأقرؤوه القرآن والحديث وهما يُشربان قلب قارئهما حبّ التوحيد والوحدة ويجنّبان المرء مزالق العصبيّات المذهبيّة . وقد سمع العماد الحديث وهو في السادسة من عمره أو دونها ، سمع من الفُراوي النيسابوريّ وابن الحصين وأجازا له . وقد يلوح هذا شيئاً غريباً في زماننا ، ولكن إسماع الصغار كان مألوفاً في العصور القديمة تخريجاً للتأسّي بآداب النبوّة وتقصيراً للسند ، فقد سمع الحافظ ابن عساكر الدمشقي وابن الجوزي البغدادي وهما في مثل سن العماد ، وسمع الحميدي من كبار تلامذة ابن حزم الأندلسي وهو في الخامسة ، بل سمع أبو بكر بن شيرويه مُسْنِد خراسان وهو في الرابعة ، وهكذا غيرهم قبلهم وبعدهم .

كذلك أخذ العماد في صباه بتعلّم الفارسية والعربيّة . وهو في تعلم العربية مدين لبغداد أولاً وآخراً ؛ لأنه تلقّاها أوّل ما تلقّاها على أديب بغدادي كبير هو ابن الأخوة الشيباني ، أقام بأصبهان أربعين عاماً ، وكان العماد يُشيد كثيراً بفضله وبأدبه وشعره .

ولما ورد بغداد مع أبيه ، وهو في السنة الخامسة عشرة من عمره ، انتظم في سلك طلاب المدرسة النظامية ، فثقف النحو واللغة والأدب ، وسمع الحديث ، ووعى الفقه على مذهب الإمام الشافعي لأنه مذهب أهل بيته ، وأتقن الخلاف والأصول ، ودرس العلم الرياضي ، واشتغل بحل أقليدس . وأقام كذلك ثلاث سنين للتفقّه في المدرسة الثقتية ، وحرص على اكتساب ثقافات عصره في جميع فروعها ، فلم يقف عند حدود ما يتلقّاه في المدرسة النظامية والثقتية من شيوخه مع جلال أقدارهم ، بل كان يتعدّى ذلك الى غيرهم من العلماء الفحول ،

والى حلقات المناظرات ومجالس الوعظ الممتازة ، فيتتبعها ويترصد أوقاتها ، ليشهدها ، ويفيد منها العلم والرأي ومناهج الجدل بين العلماء ، هذا الجدل الذي بلغ الغاية من القوة والبراعة في عصره ، ويعلق ما يسمعه من الفوائد والغرائب في هذه الحلقات والمجالس .

ثم هو بعد أن أنفق زمناً في التحصيل ببغداد ، عاد الى أصبهان مع أبيه في سنة ٥٤٣ هـ في زيّ طلبة العلم ، واذا هو يواصل الدرس والتحصيل ، فيتفقه بها على الخجندي والوركاني . ولبث في أصبهان الى سنة ٥٥١ هـ . ثم قدم مع أبيه ثانية الى بغداد بنيّة توطنها ، واذا هو يمضي في سيرته من الدرس والتحصيل ، وإذا هو في هذه المرّة ينصرف انصرافاً تاماً الى الأدب ، ويتتلمذ لمثل الإمام ابن الخشّاب ناقد مقامات الحريري ، ويعاني الشعر والنثر فيبرع فيهما ، ثم يدأب على تجويدهما طوال حياته .

ولم يأنف بعد علوّ سنّه وارتفاع مكانته من الاستفادة من كلّ إنسان يشيم عنده بارقة فضل وأدب . فقد رأيته وهو نائب الوزير بالبصرة سنة ٥٥٦ هـ يقرأ كتاب المجمل في اللغة لابن فارس على أديب بصري يقال له ابن الأحمر التميمي ، ويسمع مقامات الحريري على ابن الحكيم عن الحريري ، كما يسمعها على ابن الحريري عن أبيه أيضاً ؛ لأنه وجده متقناً لمقامات أبيه متناً وشرحاً .

ورأيته قد قرأ دواوين كاملة على أصحابها أو غيرهم ممن يتقنها ، فقرأ على الشاعر الأمير أبي الفوارس المشهور بحميص بيض ديوانه ، وسمع جميع شعر القاضي الأرّجاني على أبيه ، عنه ، كما سمع على الأديب النابه النطنزي أكثر شعر أبي المظفر الأمويّ الأبيوَرْدي . بل رأيته ، وقد تقدمت سنّه وعلا شأنه في الدولتين وتصدر للإفادة والتدريس في مدرسة السلطان نور الدين الشهيد بدمشق وأقبل الناس على سماع الحديث عنه وتلقّي الفقه وغيره عليه ، يثابر على خطّته هذه من لقاء كبار الشيوخ للأخذ عنه والسماع منهم . ففي دمشق سمع على الحافظ ابن عساكر بعض تأريخه الكبير وهو في ثمانين مجلدة ، وشيئاً من مؤلّفاته . وفي مصر سمع بالإسكندرية ، وهو في حدود السبعين ، الحديثَ على الحافظ أبي طاهر السِلَفي ، وسمع الموطّأ للإمام مالك على ابن عوف الزهري المالكي ، سمعه عليه مع السلطان صلاح الدين الأيوبي .

وهذا دأب المطبوعين على حبّ المعرفة واستكمال أسبابها ، يرون أنفسهم أبداً ناقصين فيسمون في تكميلها وتجميلها بحلية الفضل ، لا يأنفون من الأخذ عن كل ذي زادٍ من معرفة ، ولا تقعد بهم السنّ ولا سموّ المراتب ولا جلال الأقدار عن متابعة التحصيل . وقد دلّت سيرة العماد في هذا الشأن على رجل مثالي في اقتباس أزواد المعرفة ، قليل النظراء في اعتكافه على الدرس والتحصيل .

ب) وثاني عناصر شخصيّة العماد ، بُعْدُ همّتِه ، وإكثارُهُ من الأسفار بين البلاد في شبابه وكهولته وشيخوخته ، طلباً للكمال ، وابتغاء لحظوظه من الدين والدنيا . ونحن إنما نكبر ذلك ، لأن السفر كان في عهده وإلى عهد قريب منّا قطعةً من سقر كما وصفه القدماء بسبب وعورة الطرق وبطء وسائل النقل البدائية ؛ والإكثارُ منه مع مشاقّه وأخطاره ، دليلُ علوّ الهمّة وسموّ المطمح . وكانت مجالات أسفار العماد ما بين أصبهان ومصر ، ثم جنوباً الى الحجاز ، وشمالاً الى بادية الشام والموصل وسنجار وحلب . وقد بدأها وهو ابن خمسة عشر عاماً ، وختمها قبيل وفاته بأيام قليلة وهو ابن ثمانية وستّين عاماً .

وفي معنى تنقّله يقول :

يوماً بجَيّ ، ويوماً في دمشقَ ، وبالـ ... فُسطاطِ يوماً ، ويوماً بالعراقَيْنِ
كأنّ جسمي وقلبي الصبّ ما خُلِقا ... إلا ليقتسما بالشوقِ والبَيْنِ

ولقد أفادته هذه الأسفار علماً بأحوال الممالك الإسلامية وسياسة دولها ، ووصلته بالملوك والأمراء والوزراء ، وكوّنت له علاقاتٍ أدبيّةً وعلميّة ممتازة .

وكان من أسفاره ما أفاد به النجاة من الشرّ ، وهو سفره الأوّل مع أبيه من أصبهان الى بغداد طلباً للأمن والسلامة فيها ، مذ كان ابن خمسة عشر عاماً ، فأقام فيها عشرة أعوام أفاد بها علمه في المدرسة النظاميّة والمدرسة الثقتيّة وفي لقاء العلماء والشعراء ، الى أن رجع الى أصبهان في سنة ٥٤٣ هـ .

ومنها ما أدّى به فرضاً وشهد به منافع له ، وهو سفره في سنة ٥٤٧ هـ من أصبهان الى

الحجاز حيث حجّ بيتَ اللهِ الحرامَ بمكّة المكرّمة ، ثم عاد الى أصبهان .

ومنها ما أفاد به علماً وغنى وجاهاً ومناصب ، وهي أسفاره في الأقطار العربية الكبرى : العراق والشام ومصر . وذلك بعد عودته الثانية الى بغداد في سنة ٥٥١ هـ مع أبيه بنيّة توطّنها . فانصرف في هذه المرة الى التخصّص بالأدب العربي ، ومعاناة الشعر والنثر ، إذ كان يبتغي بالسيرة الأدبية الظفر بمناصب الدولة ، وكانت الدولة العباسيّة ببغداد يومئذ لا تزال على ما سنّته لها الخلفاء الأوائل من رعاية الأدباء الممتازين ومن إسناد مناصبها الى البلغاء والكُفاة من أرباب المواهب العالية ، فاستقلّ بعلم الأدب ومعاناة صناعة الكتابة والشعر ، ليتّخذ ذلك وسيلته الى تسنّم المناصب . فبدأ صلته بالتقرب الى الخليفة المقتفي لأمر الله ، فمدحه بقصيدة رفعها اليه عقيب انكشاف كربة حصار بغداد برحيل السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه السلجوقي عنها ، وذلك ليدلّه على نبوغه وكفايته ، فولّاه الأعمال الجليلة . ثم اختص بالوزير الخطير العلّامة المحدّث الفقيه عون الدين بن هُبَيْرَةَ الحنبلي ، فولّاه نيابته عنه في واسط وفي البصرة . ولما توفّي ابن هبيرة مسموماً في سنة ٥٦٠ هـ ، نكب العماد بالاعتقال في الديوان ببغداد مع من اعتقل من أنصاره عدّة أشهر . فلمّا عفي عنه ، لم تطب له الإقامة ببغداد ،

فهجر العراق الى الشام ليعيش في كنف الدولة النورية ، وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين محمود بن أتابك زنكي ، وكان من أجلّ ملوك الاسلام عقلاً وعدلاً وتدبيراً وجهاداً في سبيل الله . فلقيه مدبّر دولته قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري بالترحاب ، وأنزله بالمدرسة النوريّة الشافعيّة . وكان هناك الأمير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين ، يعرف أسرته ، فلمّا سمع بمقدمه خفّ لزيارته ، فاهتزّ العماد لهذه الحفاوة ، فمدحه بقصيدة طويلة أوّلها :

يومُ النوى ليس من عمري بمحسوب ولا الفراق الى عيشي بمنسوب

وكان أخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر ، فبشّره فيها بولاية صلاح الدين الديار المصرية ، وتمّ ملك صلاح الدين مصر بعد سنتين ، فكأنّ العماد نظم ما في الغيب بتقديره . فشكره الأمير ، وأحسن اليه وأكرمه ، وقدمه على الأعيان وميّزه ،

ووالاه العماد ، ووالى فيه وفي أخيه أسد الدين وابنه صلاح الدين أناشيده العذبة . وأفادته هذه العلاقة من بعدُ في مؤتنف أيامه ، إذ وصلته بالدولة الصلاحيّة ، وجعلته ثاني رجل فيهـــا يتصرّف بسياسة البلاد ، وأوّلها الوزير المشهور بالقاضي الفاضل .

أمّا السلطان نور الدين ، فقد ألقى سمعه الى ما حدّثه به وزيره الشهرزوريّ من فضائل العماد التي خبرها في مذاكراته له ، ومنها فقهه وبراعته في مسائل الخلاف والفروع ، وقدرته البالغة في الكتابة العربيّة والفارسيّة ، كما أصغى الى ما أنشده إيّاه من شعره في مدحه ووصف جهاده للفرنج ، فأعجب به ، ورتّبه في ديوانه منشئاً (لاستقبال سنة ثلاث وستّين وخمس مئة في مكان كاتبه شاكر بن عبد الله المعرّي الذي استعفى من الخدمة في كتابة الإنشاء وقعد في بيته) . ثم علت منزلته عنـــده ، فاعتمد عليه في خاصّ أمـــراره ، وسيّره الى بغداد رســـولاً في أيام المستنجد بالله . ثم فوّض اليـــه تدريس المدرســـة النوريّة الشافعيّة ، فكان يتزاحم الفضلاء في حضور دروسه ، ثم ولّاه الإشراف على ديوان الإنشاء مضافاً الى كتابة الإنشاء .

وهكذا وجد على الأيام منه الإعزاز والتمكين ، وبلغ منزلة رفيعة لديه . وقد ذكر أنه حضر رسل الخليفة المستضيء بأمر الله عنده ، وقد نصّوا على من يحضر في مجلسه ، وأغفلوا ذكر العماد ، فطلبه نور الدين ، وقام لقيام الرسل له لمّا حضر ، وقصد أن يعرفهم منزلته .

ذلك ما ظفر به العماد في سفره الى دمشق . فلما توفّي نور الدين رحمه الله واتّجهت حاشية خليفته ـ ابنه الصبي الملك الصالح اسماعيل ـ الى نسخ ظلّ العهد السابق ، وإبعاد رجاله بالإضافة والمضايقة ، ترك جميع ما هو فيه ، ولجأ الى السفر أيضاً .

فارتحل الى العراق خائفاً يترقّب ، مخلّفاً بلاد الشام وراءه نهبةً المطامع : تتقسّم الأمراء نواحيها ، وتطمع الفرنج في غزوها وانتزاعها من أيدي أهلها .

فما بلغ الموصـل ، حتّى مرض بها مرضاً شديداً ، فأقام ينتظر الشفاء ، ليستأنف السير الى بغداد ، أملاً في استعادة مجده الذاهب في ظلال الخلافة العبّاسيّة . فبلغه ، وهو في عقابيل الداء ، خروج السلطان صلاح الدين من مصر الى البلاد الشاميّة ، ليحفظها من الفرنج الذين كانوا

يتأهبون لغزوها . فهاجه الطرب لقصده ، لسابق معرفته وقديم ودّه ، طامعاً في العودة الى مركزه القديم في هذا العهد الصلاحي الجديد . فسار الى دمشق سالكاً اليها طريق الصحراء ، وأدرك السلطان في حمص وقد فتح قلعتها ، فحضر بين يديه ، وأنشده مدحه وأطال فيه وأجاد ، ولزم السلطان يرحل برحيله وينزل بنزوله ، الى أن تم له ما أراده بسعي القاضي الفاضل وزير السلطان وترشيحه . وقد استند في هذا الترشيح الى كفاية العماد العالية في الأدبين العربي والفارسي ، وحاجة الدولة الى كاتب وترجمان من طرازه . وأفاء السلطان عليه من رعايته ، وركن اليه بأسراره ، فتقدّم الأعيان ، وضاهى الوزراء ، وأصبح الكاتب الثاني في الدولة الصلاحيّة . ثم عاش ما عاش في خدمته مصاحباً له في حضره وسفره ، فكانت أسفاره معه ومع نور الدين الشهيد قبله لا تدخل تحت الحصر .

وأكبر ما يدلّ على انعقاد قلبه على تعشق الأسفار ، تعلّقه بها وهو شيخ في عشرة الثمانين . وإذا استثنيت سفره ، وهو في هذه السن بعد وفاة السلطان ، من دمشق الى مصر ، فراراً بنفسه من عدوان ضياء الدين ابن الأثير الجزري وزير الملك الأفضل ، لأنه سفر اضطراري ألجأه اليه الخوف من الظلم والعدوان ، فلن أنسى خاتمة أسفاره من دمشق الى مصر أيضاً ، وبالعكس . وكان باعثه عليه في ذهابه الطرب والشوق ، وفي إيابه الفرار بالنفس من الموت بالوباء أو الجوع . وهو قد سافر الى مصر بصحبة الملك الكامل محمد بن الملك العادل ، بعد أن استأذنه بهذه الصحبة ، ليشهد حفلات إعراسه بمؤنسة خاتون ابنة السلطان صلاح الدين ، وولاية أبيه الملك العادل على عرش مصر مكان الملك المنصور بن الملك العزيز بن السلطان صلاح الدين . فأقام فيها عدّة أشهر أجفل بعدها من الوباء والجوع اللذين حلّا بمصر فيمن أجفل من الخلائق حذرَ الموت الى المغرب والحجاز والشام واليمن ، وعاد الى دمشق في طريق مخوف جداً وهو ينوء بالسنين الثماني والسبعين ، وما كاد ينجو من الموت في مصر ثم من خطف الفرنج الذين وقفوا على ساحل البحر في فلسطين بطريق الجفلين المنكوبين ، وبلغ دمشق منهوكاً مهدود القوّة ، حتى روّعته الزلزلة العظيمة الهائلة التي امتدّت في ساعة واحدة من صعيد مصر الى

أذربيجان ، فلم يلبث بعدها إلا أيّاماً ، وأدركته منيّته في غرّة شهر رمضان سنة ٥٩٧ هـ .

ج) وثالث عناصر مكوّنات « شخصيّة » العماد — مشاركته القويّة للدولة والشعب في الحرب الهجوميّة الدفاعيّة التي ألهب أوارها على صعيد الشرق الأدنى بين الشرق والغرب مدى مئتي عام . وهو قد عاش في ظلال الدولتين المجاهدتين : الدولة النوريّة والدولة الصلاحيّة ، اللتين نهضتا بوجه هذا العدوان البربري ، ربع قرن قضاه في تثبيتها بلسانه وسنانه معاً ، إذ كان كاتباً للدولتين يصرف شؤونها الإداريّة والسياسيّة ببراعته ، وجندياً مجاهداً مناضلاً من الطراز الأول يدفع عن الوطن موجات العدوان والبغي فيمن يدفع عنه من أبطال الكفاح المؤمنين .

شهد مع نور الدين حروبه مع الفرنج ، وشاركه في فتوحاته ، وطرب لانتصاراته فتغنّى بها وبيطولته ، ناظماً أوصافه الجليلة بأحسن لفظ وأرقّه ، حتى قال أبو شامة المقدسي : « لم يبق بعد موت القيسراني وابن منير مخيل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي ، إلا ابن أسعد الموصلي ، الى أن قدم العماد الكاتب الشام في سنة اثنتين وستين وخمس مئة ، فتسلّم هذا الأمر ، وعبّر عن أوصاف نور الدين وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً » . وسبب ذلك أنه كان في هذه الحروب مشاركاً وشاهد عيان ، وبين الشكلى والثاكلة المأجورة فرق عظيم !

وكذلك عاش ما عاش في خدمة صلاح الدين من بعدُ ، وكانت خدمته له أطول أيّاماً ، وهو مصاحب له في حروبه مع الفرنج ، وقد شهد معه جميع معاركه وغزواته ، إلا غزوةً تخلّف عنها ، وشارك بنفسه مع جيوشه في قهر الجيوش الباغية في أعظم وقائع التأريخ الفاصلة في القرون الوسطى بالأردن وفلسطين ولبنان ، ومنها معارك صيداء وبيروت وجبيل واللاذقية والكرك وصفد وعسقلان وعكاء والناصرة وقيسارية ونابلس والفولة وتبنين وحطّين وصهيون والقدس . وكان فتح القدس أعظم ما أطلق بلاغة العماد في وصف مناقب صلاح الدين ، وغناء مسراته في تباشير الفتح المبين ، والأيّامُ دولٌ والدنيا لمن غلب .

إنّ هذا الجانب وحدَهُ من حياة العماد الكاتب الشاعر المجاهد ، ليؤلّف أجمل صورة له ،

وهو خليق بالدرس ، ولعلّه حين تُجتمع مادته يتكوّن منه سِفرٌ مستقلٌ يحفل بأروع معاني القوّة والحرّيّة والجلال ، وما أحرى هذه الجوانب من تأريخنا بأن تُثار لأهل هذا العصر المفتونين الغافلين !

د) ورابع عناصر « شخصيّته » ، إنتاجه الأدبي والتأريخي والأخلاقي . وكان مفطوراً على التأليف ، بدأه بتقييد الفوائد وتعليق النكت الغريبة مذ كان فتى ناشئاً يطلب العلم ببغداد ، من ذلك عنايتُه بمناظرات أبي الوفاء علي بن عقيل الإمام الحنبلي الكبير والكيا الهراسي الفقيه الشافعي وتعليقُه منها فوائدَها الكثيرة ونكتَها الغريبة ؛ لأنه وجد فيها كلاماً جزلاً ، وأسلوباً بديعاً رائقاً ، ومنهاجاً قويماً واضحاً . وأدلّ من ذلك على تعلّقه بالتأليف وهو طالب شابٌ ، ترشُّدُه مجالس الأمير العالم الواعظ البليغ المشهور المظفّر بن أردشير العبادي ، وكتابتُهُ هذه المجالسَ من لفظه ، ليتملّى بدائعه وروائعَه . وقد قدم هذا الأمير بغداد رسولاً من السلطان سنجر الى الخليفة سنة ٥٤١ هـ ، فأقام فيها مدةً طويلةً ، وجلس للوعظ بجامع القصر وبدار السلطان ، وحضر الخليفة مجالسه ، ففتنه وفتن الجماهير البغدادية بما بيديه من سحره وبدعه ، ولكنهم جميعاً وقفوا من إعجابهم بمواعظه البليغة الشائقة عند حدود سماعها ، ولم يكن فيهم من يُعنى بتدوينها وبكتبها من لفظه غير هذا الفتى الناشىء . ثم عاش العماد ما عاش والتأليفُ هِجّيراه وديدنه ، ولعلّه قضى وهو ينظم قصيدة أو ينشىء رسالة أو يؤلف كتاباً .

وتنقسم كتب العماد وآثاره الى أربعة أقسام :

أ — تعليقات .

ب — كتب مترجمة .

ج — كتب تأريخية .

د — شعر ونثر .

أ) أمّا التعليقات ، فهي أوّل ما تعلّق به حين بدأ الاشتغال بالتأليف ، وقد بيّنت

ما عرفته منها .

ب) وأمّا الكتب المترجمة ، فالذي عرفته منها كتابان نقلها من الفارسية الى العربية ، وهما : ترجمة كتاب في تاريخ الدولة السلجوقيّة من تأليف الوزير أنوشروان بن خالد من أوسط عهد نظام الملك الى آخر عهد طغرل بن محمد بن ملكشاه ، وترجمة كتاب في الأخلاق لأبي حامد الغزالي اسمه « كيمياء السعادة » في مجلّدين . وهو مرتب على أربعة عنوانات وأربعة أركان للعوام الملتمسين طريق المعرفة ، وهي : معرفة النفس ، ومعرفة الربّ ، ومعرفة الدنيا ، ومعرفة العقبى . وترجمته لهذا الكتاب لا يعرف مؤرّخوه شيئاً من أمرها ، وإنما ذكرها هو نفسه في بعض كتبه مشيراً الى أنه ترجمه بأمر القاضي الفاضل في سنة ٥٧٦ هـ . ولعلّ له في الترجمة من الفارسيّة الى العربيّة آثاراً أخرى جهلها أيضاً مترجموه ، فلم يعرضوا لها بشيء .

ج) وأمّا كتبه التأريخيّة ، فقد احتفل فيها بثقافة عصره وتأريخه السياسيّ والحربيّ والاجتماعيّ ، وقلّما تعرّض فيما كتبه لغير عصره ، فدوّن في « خريدة القصر وجريدة العصر » وتذييلها المسمّى بـ« السيل » أدبَ القرن السادس ما بين بلاد فارس والأندلس ، روايةً ومشافهةً ونقلاً من موارد صافية ، وبات ما كتبه وجمعه في هذا الباب وقد بلغ أكثر من عشرة أجلاد مرجع الباحثين ، ولولا كتاباه هذان لكان تأريخ الثقافة الأدبيّة في هذا القرن مجهولاً عند المؤرّخين .

كذلك كتب تأريخ عصره السياسيّ وأحداثه الحربيّة والاجتماعيّة كتابة شاهد عيان في الغالب ، لابس السياسة وكتب عن السلطان ، وحضر معه الوقائع والحروب ، وعالج برأيه وقلمه مشكلات الدول . وهو قد عاش في كنف الدولة العباسيّة ببغداد وواسط والبصرة ، وخدم الدولتين النوريّة والصلاحيّة في الشام ومصر ، ورأى آخرة سلاجقة العراق وكردستان ، وشهد مصرع الدولة الفاطميّة وخلافة الدولة الأيوبيّة لها في مصر والشام وشارك في أعظم ما عرف في التأريخ القديم من حروب الشرق والغرب على ثرى الوطن المقدس وذاق لذّة الانتصارات ، ثم فرغ لهذا وغيره فكتب فيه الكتب الضخام التي باتت كذلك

مرجع المؤرخين في أحداث القرن السادس الهجري مدى الأيام ؛ لأنها تميزت بالرواية الصادقة ، وطول النفس ، لولا ما ثقلها به من أثقال السجع والجناس والترادف والإطناب .

وأي مؤرخ يبحث في تأريخ الدولة السلجوقية ، يستغني عن كتابه « نصرة الفترة وعصرة القطرة » ؟ هذا الكتاب الذي ترجم بعضه من كتاب الوزير أنوشروان ، فهذبه وأعتمد فيه الصدق والصواب ، وجرده من روح التشفي والانتقام ، ثم زاد عليه بداية الدولة السلجوقية ، وذيله بما عاينه في عصره من حديث الأعيان وحادث الزمان .

وأي كاتب أو باحث يكتب في تأريخ الأحداث السياسية والحربية العظيمة في القرن السادس الهجري ـ في مصر والشام ـ لا يرجع الى « الفتح القدسي » الذي أرخ فيه العماد فتوحات السلطان صلاح الدين الأيوبي ، والى « البرق الشامي » الذي دون فيه حروب بطلي الإنقاذ العظيمين نور الدين وصلاح الدين مع الفرنج وهو في سبعة مجلدات ، والى « عتبى الزمان » و « نحلة الرحلة » و « خطفة البارق » وهي كتب متممة للبرق الشامي ؟

د) وأما الشعر ، فله فيه ديوان يدخل في أربعة مجلدات كبار ، وهو مفقود ، وقد نظمت ما تناثر في الكتب من شعره في جزء لطيف ، ولعلي أوفق لطبعه . وله أيضاً ديوان آخر صغير جميعه دوبيت .

وأما النثر ، فله فيه ديوان رسائل ديوانية وسياسية في مجلدات ، وهو مفقود أيضاً ، ولكن في خزانة كتب نور عثمانية في استنبول نسخة من إنشاء أحد الكتاب في حدود سنة ٥٩٧ هـ كتب على ظهر الورقة الأولى إنها ترسلات العماد الكاتب . وقد كتبت النسخة في القرن السادس بخط نفيس في ٩٩ ورقة من الحجم المتوسط ، ولها صورة شمسية في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

والكلام على شعر العماد ونثره ، يستغرق محاضرات .

* * *

هكذا أنفق العماد الكاتب عمره جداً وسعياً وتحصيلاً وجهاداً وإنتاجاً ، فكان علماً في

العلم ، وزعيماً في الكتابة الفنيّة ، وقائداً في الشعر ، وحجّة في التأريخ ، وإماماً في التأليف . نفع بمواهبه المتعدّدة أمّته حيّاً وميّتاً ، صادقاً مخلصاً ، ولم يبخل عليها بفضله ، وكانت سيرته العلميّة العمليّة من حجج الإثبات لنبوغ الشرقي وكفاياته البارعة في مختلف مطالب الحياة على اختلاف العصور .

* * *

وبعد ، فقد كان عصر نور الدين وصلاح الدين من أزهى عصور القوّة والبطولة والكفاح في تأريخنا المجيد ، وكان هذان القائدان العظيمان عنوانين لذلك العصر في العلم والتقوى والسياسة العادلة وتدبير الملك والجهاد في سبيل الله والسعي في تحرير الوطن من المغيرين ، ومن كان مثلهما في سمو الذات وجلال الصفات ، كان خليقاً بأن يختار رجاله من طراز العماد في الكفايات ، ومقياسُ عقول الرجال والدول اختيارُها أعوانَها ، وقد قيل :

قد عرفناك باختيارك إذْ كا ... ن دليلاً على اللبيب اختيارُهْ

وبحسب المرء في معرفة أيّ عصر كان أنْ يتعرف سيرَ رجاله وكفاياتهم وأخلاقهم ، ليتبيّن منها تلك الحقيقة ، ويضع دوله في المنزلة التي وضعتْ نفسها فيها ؟

محمد بهجة الأثري